الحديث ذو شجون

للدكتور زكي مبـــارك

شاعر ينبغ فوق سرير المرض — للملك الشبل — وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها — لا خوف من المستقبل مع صحة العزائم والقلوب

شاعر ينبغ فوق سرير المرض

مضت سبعة أعوام والأستاذ صالح جودت يحقد عليّ أبشع الحقد لسكوتي عن التنويه بمواهبه الشعرية ، وما هدأ ثار الحقد في صدره إلا عرفانه بأني لا أخصه بذلك السكوت وإنما هو مبدأ ارتضيته ودرجتُ عليه ، وذلك المبدأ هو الضنُّ المطلق بتشجيع الناشئين ، لأني أعتقد أن كل شيء يجوز فيه التشجيع إلا الأدب والبيان ، فالتشجيع هنا مَفْسدة ولا يقع إلا من « الجماعة » الذين يحتاجون إلى أسندة من الهتاف والتصفيق ، والتحدث عنهم بحق وبغير حق في الأندية والقهوات والجرائد والمجلات .

وهذا المبدأ هو الذي فرض على جمهور من شباب هذا الجيل أن ينفضّوا من حولي ، فإيهمهم أن يذكروني بالجميل في مجلة أو جريدة ، لأنهم لا يذكرون أني طوقت أعناقهم بشيء من الخاصة والإيواء إلى الدار القوراء .

وتقول له كن نظيفاً كفلان بك أو فلان باشا فيستكبر هذا الكلام منك ويقول لك في جد الواثق من صوابه وسداد رأيه : وأين أنا من هذا وذاك ؟ ولو استرسل قليلاً لزعم أن النظافة منه افتيات على حقوق الموسرين وخروج على الأدب الحميد ! . . .

* * *

نعود إذن فنسأل : ممن تأتي القدوة الصالحة إذا علمنا كما أسلفنا أن القدوة « الشخصية » خير وسائل التعليم في الإصلاح الاجتماعي ؟

تأتي من بعض الأغنياء الرحماء العارفين حين يقيمون في الريف إقامة يتصل فيها العطف والود الكريم بينهم وبين الفقراء

وكم عدد هؤلاء الأغنياء الرحماء العارفين ! ؟

قليل ولا ريب ، والرجاء في ارتقاء منيشة الفلاح الصغير التشجيع ، وأنا غير آسف على ما فاتني من ذلك الحظ الجزيل !

ولو أني استبحت التفريط في الحرص على هذا المبدأ مرة واحدة لاستبحته في معاملة الأستاذ صالح جودت ، وهو صديق لا أذكر أنه قصّر في حفظ العهد إلا باتهامي بالسكوت عن التنويه بمواهبه الشعرية ، وهو اتهام مردود ، لأني لا أذكر أن أشعاره نقلتْ قلبي من مكان إلى مكان حتى أُجشّم نفسي مشقة الدرس لشعره البليغ !

كان صالح جودت يتقاضاني الكلام عن شعره في كل لقاء ، وكنت أجيب بأن ذلك سيكون يوم يظفر بدرجة من درجات الجامعة المصرية ، لأني أخشى إن شجعته أن ينصرف عن الدرس وينقطع لقرض الشعر ومراسلة الجرائد والمجلات . فلما سمع صالح نصيحتي وظفر بالدرجة المنشودة جاء يذكّرني بما كنت وعدتُ ، فهل وفيت بما وعدت ؟

حملني الزهد في اجتلاب المودّات على وصل السكوت بالسكوت ، كما كنت صنعت في معاملة صاحب « الجندول » ثم شاءت الأيام أن أسمع أن صالحاً وَقَذه المرض فلم يَعُد بهجة الأندية الأدبية ، ولم يبق رجاء في التحدث إليه إلا بعد استئذان الطبيب

فإن كنتم سمعتم أن الشعراء وصفوا الدنيا بالخيانة والغدر أقرب من الرجاء في زيادة هؤلاء

فأفضل القدوة وأنفعها على هذا ما جاء من قبل المعلمين الذين يشبهون الفلاح في نشأته فيعمد إلى التشبه بهم غير متحرج ولا معتقد في نفسه أنه يعدو طوره ويخرج من أفقه

وهنا يأتي دور المعلم الإقليمي في الإصلاح ، فيجمع بين الإصلاح بالتعليم والإصلاح بالقدوة الصالحة في رأي الفلاح ، ويروح في القرية وهو معلم الأبناء والآباء على السواء

كن أيها المعلم الإقليمي قدوة لمن حولك ، وكن على حال ينظر إليها الفلاح فيحب أن يتشبه بها ويرى بعينه دلائل الخير في محاكاتها ، ثم يأنس إلى نصحك بعد ما أنس إلى عملك ، فيسمع منك القول ويحمد منك العمل . فأنت بما تهديه وتلقى في روعه مصلح جيل لا تفلح في إصلاحه المدرسة وحدها ، ولا الكلام الذي يجري به اللسان أو تنطوي عليه الأوراق .

عباس محمود العقاد

والعقوق فاعرفوا أن ذلك الوسف لم يحقّ على الدنيا إلا لبغيها الأثيم على مثل هذا الشاعر ، وله قلبٌ أطيب وأطهر من قطرات الندى فوق أزهار الربيع

ومرّت ثوانٍ ودقائق وساعات وأيامٌ وليالٍ وأسابيع وأشهر ولم يخرج صالح من سجن المرض ، فما أطول شقائى بمحنتك القاسية ، أيها الصديق العزيز !

وعلى حين غفلة أسمع أن الفتى الذى لم يُرضنى شعره قد نبغ فجأة فوق سرير المرض ، فهو الذى يقول فى تصوير ما بقىَ من أوطار هواه فى دنياه :

فليرحم الله آمالى وأهوائى ... إنى قنعت بهذا الخدَع النائى
بقية العمر ايامٌ تدبّ على ... صدرٍ تهدّم إلا بعض أشلاء
أعيشها ناسكاً فى ركن صومعةٍ ... قامت على صخرةٍ كالموت صمّاء
يبدو خيال الأمانى لى فأطرده ... حتى كأن الأمانى بعض أعدائى

ثم يصف عُزلة المستشفى وأحوال ساكنيه فيقول :

أوّاه من عُزلةٍ كالسجن منطقةٍ ... على جراحٍ وآلام وأرزاء
ما هذه الجثث الملقاة فى سُرُرٍ ... أنصاف موتى على أنصاف أحياء
صُفر الوجوه كأن السقم عفّرهمَ ... بحفنةٍ من تراب القبر صفراء
للآه فيهم تراتيلٌ منغّمةٌ ... تنسابُ من قَصَباتٍ نصف خرساء
وما لهم من نهار فيه مرحمةٌ ... ولا لهم ليلةٌ ليست بليلاء

ثم يتلفت إلى الممرضة الحسناء — ومن تقاليد المستشفيات أن تكون الممرضات صِباح الوجوه إلى حدٍّ الفتون ليغرسن بذور الأمل والحياة فى صدور المكروبين — يتلفت إلى الممرضة فيقول :

مَن يا ممرّضتى الحسناء قدّر لى ... أن ألقيك بأرضٍ غير حسناء
ماذا أتى بى هنا ؟ ما خَطْبُ عافيتى ؟
وكيف غال شبابى غائل الداء
قد كان لى موعدٌ فى الصيف مرتقبٌ
على الشواطىء بين « الرمل » والماء
فما بدا الصيف يمضى بى على جبل
جَهنّميّ اللظى فى جوف صحراء
وأنتِ ... هل عطفك المبقى على رمقى
عطف المحبين أم عطف الأطباء
إن كان ذاك فيا سعدى ويا فرحى ... أو كان هذا فإنى فى الأذلاء
الحب يشهد أنى يا ممرّضتى ... ما صدّنى عنك إلا فرط إعيائى

أما بعد فهذه الشاعرية ليست صحوة الموت ، يا صالح ، وإنما هى الفجر الصادق ، وسترجع إلينا بعد أيام وأنت فى غاية من عافية البدن والروح

لم أسأل عنك فى علتك ، يا صالح ، لأنى شغلت بك عنك ، ولو سألت قلبك لشهد بأن عطف عليك وأنا بعيد كان أرفق من عطف طبيبك وهو قريب ، وأصدق الحديث حديث القلوب

سترجع إلينا يا صالح ، بعد أيام ، وسنعيد سهراتنا فى أندية القاهرة ، وسأسمع لحاجتك فى العتاب ، وسأقول إن البلبل لا يجيد السجع إلا وهو سجين ، لأنى عرفتُ شاعراً لم يُجد الشعر إلا وهو عليل

الملك الشبل

لم أسمع أن جلالة الملك فيصل الثانى يوصف إلا بعبارة « الملك الطفل » وهى عبارة جافية ، فأرجو من الشعراء والكتاب أن يصفوه بعبارة « الملك الشبل » فهى بمقامه أنسب وأليق

وأذكر بهذه المناسبة أن صاحب المعالى الدكتور محمد حسين هيكل باشا تلطف فدعانى إلى مكتبه ليقدم إلىّ « وسام الرافدين » المهدى إلى من حكومة العراق

وقد وثب قلبى من الفرح والانشراح لقيمة الهدية ولقيمة من أتلق من يده الهدية ، فليس من اليسور فى كل وقت أن تكون وزارة المعارف إلى أديب فى مثل منزلة الدكتور هيكل باشا ، الرجل الذى أفنى شبابه وعافيته فى خدمة الدراسات الأدبية والتاريخية ، والذى يُعَدُّ قلبه مثالاً فى الطيبة والصفاء

وقد نظرت فى الوسام فرأيته متوّجاً بكلمة « فيصل الأول » فأهلاً وسهلاً ومرحباً بوسام يُحلّى باسم ملك هو الفيصل بين عهدين من عهود العراق : عهد العجمة وعهد الإفصاح ، فقد كان فيصل الأول بمذاهبه ومسالكه هو التعبير الصحيح لعواطف العراق فى التشوف إلى رجعة المجد العربى فى أيام المنصور والرشيد

ومع أن مكاره الأيام ومتاعب النضال لم تُبق فى صدرى بقية من التأهب للجذَل والانشراح فقد سرنى أن تشهد جريدة « الوقائع العراقية » بأنى ذُكرتُ بالخير فى « إرادة مَلَكية »

يُمضيها صاحب السموّ الأمير عبد الإله ومعالى السيد صادق البصام وفخامة السيد رشيد عالى الكيلانى ، جعلنا الله ممن يرعون العهد ويحفظون الجميل

وإذا حييتم بتحية ...

تفضل الزميل الكريم الأستاذ أبو بكر إبراهيم المفتش بوزارة المعارف فأعدّ كلمة لمجلة الرسالة فى ردّ التحية الجميلة التى وجّهتها جريدة الهدف البغدادية إلى مصر بإصدار عدد خاص عن أديب مصرى كان له نصيب فى خدمة الحياة الأدبية فى العراق

ولم يكن بدٌّ من تلطف هذا الزميل الكريم بردّ هذه التحية الكريمة ، فليس فى مقدورى أن أرد تحية جريدة الهدف ، فذلك امتحانٌ لا أتقدم إليه وأنا طائع ، لأنى أشعر بالعجز عن وفاء هذا الدَّين النفيس

فى ذلك العدد الخاص تحدث الأساتذة عبد الحميد حسن الغزالى ، وحميد مجيد الهلالى ، وعبد المجيد لطفى ، وعبد المحسن القصاب ، وعبد السلام حلمى ، وعبد الله محمد الطائى ، وعبد الرحمن البناء ، وروبين عوبديا ، وصالح البدرى ، وعبد الرزاق الهلالى . تحدث هؤلاء الأماجد عن صديق العراق زكى مبارك حديثاً هو البرهان الساطع على أن الوداد لا يضيع عند أحرار الرجال

وقد فكرت كثيراً فى الأسباب التى جعلت لى هذا الحظ المرموق فى العراق ؛ ثم رأيت أن الأسباب كلها تنتهى إلى سبب واحد : هو الصدق . فما تحدثت عن العراق بالجميل إلا وأنا صادق ولا ذكرته بالملام إلا وأنا صادق

وكيف لا أصدُق فى حب وطنٍ كاد ينسينى وطنى ؟

ولو عبَّرتُ عن نفسى تعبيراً صحيحاً لقلتُ إنى لم أستطع أن أتوهم أن مصر والعراق وطنان مختلفان ، وما صح عندى أبداً أنى كنت غريب الدار فى بغداد . . . وكما كان الشريف الرضى يهدد خصومه فى العراق بأن له فى مصر أصدقاء يستنجد بهم حين يشاء ، فأنا أشعر بأن لى فى العراق أصدقاء أستنصر بهم حين أشاء ، والله سبحانه هو المَفزَع لأبرار القلوب

وفى اللحظة التى أكتب فيها هذه الكلمة يستعدّ فريق من الأساتذة المصريين للتوجه لخدمة العلم والأدب فى العراق ، فأرجو أن يذكروا جميعاً هذه الكلمة الصادقة :

« كما تكون للعراقيين يكونون لك »

فمن أراد أن يظفر بحب أهل العراق فليصدُق فى حب أهل العراق ، وليعرف جيداً أن العلانية قليلة الأهمية ، فالمعوَّل عليه هو صدق القلوب ، فقد كنتُ على جانب من جفاء الطبع حين كنت هناك فما ضرنى ذلك بشىء لأن قلبى كان مأهول الجوانب بالصدق فى حب أولئك الرجال الصادقين فى الحب والبغض ، وهم برغم قلة الحجاج أبعد الناس عن الرياء

ما أذكر أنى كلفت نفسى ما لا تطيق فى التودد إلى العراقيين وإنما أرسلت نفسى على سجيتها ، وعشتُ فى بغداد كما كنت أعيش فى القاهرة وفى باريس ، وكنت أصادِق وأعادِى كما أصادِق فى بلدى وأعادِى ، فكانت العاقبة ما عرف إخوانى فى مصر من تواتر العطف علىّ من جميع أهل العراق . والصدق فى النصح يستوجب النص على الحقيقة الآتية :

لم أفكر وأنا فى العراق إلا فى شىء واحد : هو أن أؤدى واجبى تأدية صحيحة لا يؤخذ عليها تقصير أو تفريط ، وكنت أشعر فى كل لحظة أنى مسئول أمام حكومتين : حكومة القاهرة وحكومة بغداد ، وأن التهاون فى تأدية الواجب يضيِّع على مصر مزية عظيمة ، هى الثقة بكفاية أبنائها وقدرتهم على النهوض بما يُنتدَبون له من خدمة العلم والأدب فى البلاد العربية

ويجب أن أسجل أن إخوانى العراقيين قد أعانونى على تحقيق هذا الغرض الشريف ، فهم الذين خطوني بأنفسهم ، ودعونى إلى الاشتراك فى أنديتهم الأدبية والعلمية ، وحضونى على المشاركة فى توجيه الرأى العام بالمقالات والمحاضرات ، حتى استطعت فى أشهر معدودات أن أدوّن ألوفاً من الصفحات لم يظهر منها غير ستة مجلدات

وأعترف بأنى كنت أشعر بالغيرة تحزّ فى صدرى من أربعة رجال سبقونى إلى كسب ثقة أهل العراق ، وهم الأساتذة : محمد عبد العزيز سعيد وأحمد حسن الزيات وعبد الرزاق السنهورى وعبد الوهاب عزام ، فكان من همى أن أزاحم أولئك الرجال مزاحمة جدية تجعل لى مَقام صدق فى بلاد الرافدَين ، وقد وصلت بحُسن النية وبرعاية الله إلى تحقيق ما أردت بلا مشقة ولا عناء

وأواجه الأمر بصراحة فأقول : إننا لم نصنع شيئاً يزيد على وضع الأساس للمودّة الصحيحة بين مصر والعراق ، فلست أنتظر من الأساتذة الذين يخلفوننا هناك أن يحفظوا ما صنعناه ؛

فذلك مَطلَبٌ سهل المنال ، وإنما أرجو أن يمضوا فى رفع قواعد البناء بحيث لا تمرّ أعوام طوال قبل أن يصبح من القضايا المقررة أن لفظة الغربة لم يبق لها مدلول فى ذهن عراقى يعيش فى مصر ، أو فى ذهن مصرى يعيش فى العراق

ولكن ما جزاء من ينتفع بهذا النصح ؟ جزاؤه هو الشعور بأنه رجلٌ نافع ، والاطمئنان إلى أنه على جانب من قوة الأخلاق ، فليس من القليل أن يستطيع الرجل كسب الثقة بوطنه فى بلد مثل الحجاز أو فلسطين أو سورية أو لبنان ، والثقة لا تنال فى أمثال هذه البلاد إلا بالصدق فى الوطنية والصدق فى الجهاد

وقد اتفق لى فى بعض الأحايين أن أناوش فريقاً من السوريين واللبنانيين فإذا ضربنى ذلك بشىء ، لأن من ناوشتهم يعرفون فى ضمائر قلوبهم أنى سليم القلب ، وأنى لا أريد إلا جَذْبهم إلى الانضمام إلى القافلة العربية بلا تلفُّت إلى دسائس من يهمهم تقسيم الأقطار العربية إلى دُوَيْلات يذوق بعضها بأس بعض بلا موجب معقول

ومن حُسن الحظ أن تكون البلاد الشامية فى طريق من يسافر من العراق إلى مصر ، أو من مصر إلى العراق ، فتلك فرصة ذهبية لتوكيد المودة بين الأقطار العربية ، وبها نستطيع وَأْد الدسائس التى تحاك فى أحلاك الليالى لتمزيق شمل العرب والمسلمين .

وقد شاءت الظروف أن نرى اليمن والمغرب من البلاد البعيدة لقلة رغبتنا فى الهجرة والارتحال ، فمتى يجىء اليوم الذى تقهرنا فيه البادئ على التضحية بالأنفس والأموال فى سبيل التعرف إلى الأقطار العربية ؟

المصرىّ لا ينتقل من وطنه إلا وهو موظف مطمئن إلى أنه سيجد وظيفته حين يرجع ، فمتى يُخلَق المصرى المجاهد الذى يستهين بجميع المنافع فى سبيل المبدأ والعقيدة والرأى ؟

كنت أتمنى أن أكون ذلك المصرى المنشود ، ولكن ماذا أصنع وحولى « أكباد تمشى على الأرض » وليس فى شريعة الوطنية أو الدين ما يسمح بهجر تلك الأكباد ؟

أنا مقيد بقيود من حرير هى أقسى وأعنف من قيود الحديد ، فإن تلطَّف الله وقَبِل أن يكون الجهاد بالقلم مما تُنصَب له الموازين فلن يكون ذلك أول نعمة يُسديها رجل لم يُشرِّف أو يغرِّب إلا وهو متوكل عليه توكل الواثق بأن الأمر كله إليه وأن له حكمة عالية تجعل الشر على بشاعته لوناً من الخير المستطاب

لا خوف من المستقبل مع صحة العزائم والقلوب

لم يبق ريب فى أن الشرق مقبل على قلقلة تاريخية بسبب عدوان أهل الغرب بعضهم على بعض . وقد شاءت المقادير أن يتأثر الشرق بمصير الغرب لأسباب لا تخفى على اللبيب ، وربما جاز القول بأن العالم كله قد رُبط برباط وثيق يَفرض على من فى أقاصى بحر الهند أن يتأثر بما يقع لمن فى أقاصى بحر الشمال ، فليس من المستغرَب أن يرتجّ الشرق للمجازر التى تقع بين الإنجليز والألمان

فما واجبنا نحن إزاء هذه الظروف ؟ واجبنا أن نذكر أن مبادئنا فى تحرير الشرق لن ينالها تعديل ولا تبديل . واجبنا أن نذكر أن جهادنا فى سبيل الحرية جهادٌ قديم ، وأننا تسلمنا راية الكفاح من الآباء والأجداد . واجبنا أن نذكر أن الغرب الذى صنع ما صنع لم يفلح فيما تطاوَل إليه من وَأْد اللغة العربية والعقيدة الإسلامية

واجبنا ، واجبنا ، واجبنا

ذلك الواجب لا يحتاج إلى تعريف جديد ، فهو مسطور اللامع فى كل قلب ، وله جُذور فى كل نفس ، وله سلطان على كل ضمير ، ولا خوف من غياهب المستقبل إذا صحت العزائم والقلوب

فليُقلقِل التاريخ كيف شاءت الظروف ، وليكن ما يكون بين الإنجليز والألمان ، فنحنُ نحن ، والعاقبة للصابرين فى ميدان الجهاد . وسيعلم المعتدُون على الشرق كيف تنهزم قوتهم المادية أمام قوته الروحية فى أمد أقرب مما يظنون

زكى مبارك

مجموعات الرسالة

تباع مجموعات الرسالة مجلدة بالأثمان الآتية :
السنة الأولى فى مجلد واحد ٥٠ قرشا ،
و ٧٠ قرشا عن كل سنة من السنوات : الثانية والثالثة والرابعة والخامسة والسادسة والسابعة فى مجلدين . وذلك عدا أجرة البريد وقدرها خمسة قروش فى الداخل وعشرة قروش فى السودان وعشرون قرشا فى الخارج عن كل مجلد .